كتاب التفكر

وفيه أربعة أبواب :

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الأول

في فضله

قال الله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [1]. أي : وفيما أبدع فيهما ليدلهم ذلك على قدرة الصانع ويعرفوا أن لها صانعا قادرا ومدبرا حكيما .

قال ابن عباس ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النبات وما جليت القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكرة .

وقال ابن عباس ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ إن قوما تفكروا في الله تعالى فقال النبي ﷺ : «**تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره**» [2].

وذكر في **الإحياء** عن النبي ﷺ أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال : «**ما لكم لا تتكلمون؟**» فقالوا : نتفكر في خلق الله تعالى . فقال : «**فكذلك افعلوا تفكروا في خلقه ولا تفكروا فيه فإن بهذا المغرب أرضا بيضاء نورها بياضها وبياضها نورها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله تعالى طرفة عين**» . قالوا : يا رسول الله ، فأين الشيطان عنهم؟ قال : «**ما يدرون خلق الشيطان أم لا**» . قالوا من ولد آدم قال : «**لا يدرون خلق آدم أم لا**» .

---

(1) سورة آل عمران ، الآية : 191.

(2) أخرجه أبو الشيخ (1/ 215، رقم 4) ، وأورده ابن طاهر المقدسى فى تذكرة الموضوعات (ص 68، رقم 383) .

وعن عطاء قال : انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة ـ رَضِيَ الله عَنْها ـ وبيننا وبينها حجاب فقالت : يا عبيد ، ما يمنعك من زيارتنا؟ قال : قول النبي ﷺ : «**زر غبا تزدد حبا**»[1]. قال ابن عمير : فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ . قال : فبكت وقالت : كل أمره كان عجبا أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال : «**ذريني أتعبد لربي تعالى**» . فقام إلى القربة فتوضأ منها ، ثم قالم يصلي فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : «**ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[2]؟» . ثم قال : «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**» .

وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وقال الفضيل الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك .

وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم وما فهم إلا علم وما علم إلا عمل .

وقال بشر الحافي : لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوه . وقال يوسف بن أسباط إن الدنيا لم تخلق لينظر إليها بل لينظر بها إلى الآخرة .

وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم .

وقال بعض السادة : الفكر نور والغفلة ظلمة والجهالة ضلالة والسعيد من وعظ بغيره .

---

(1) أخرجه الطبرانى (4/ 21، رقم 3535) ، والحاكم (3/ 390، رقم 5477) ، وتمام (1/ 35، رقم 64) . وأخرجه أيضًا : الطبرانى فى الأوسط (3/ 248، رقم 3052) ، وفى الصغير (1/ 187، رقم : 296) . قال الهيثمى (175/8) : فيه محمد بن مخلد الرعينى وهو ضعيف .

(2) سورة آل عمران ، الآية : 190.

الباب الثاني

في بيان ما يتفكر فيه

قال رسول الله ﷺ: «**تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله تعالى فإنكم لن تقدروا قدره**»[1].

وقد ورد في القرآن الحث على التفكر في مخلوقات الله عز وجل قال الله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[2] الآية. وقال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ**﴾[3]. أي: وينظروا إلى ما خلق الله فيه من شيء ليستدلوا على وحدانيته فليتفكر الإنسان في السماء وعظمها وكواكبها وشمسها وقمرها وما فيها كوكب إلا ولله تعالى فيه حكمة في لونه وشكله وموضعه، وقد قيل: إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة، وإن أصغر كوكب في السماء مثل الأرض ثمان مرات فإذا كان هذا قدر كوكب واحد، فانظر إلى كثرة الكواكب وإلى السماء التي فيها الكواكب وإلى إحاطة عينيك ذلك مع صغرها وليتفكر أيضا في نفسه فإن في خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشره وهو غافل عن ذلك، وقد أمره الله تعالى بالتدبر في نفسه فقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[4]. فإذا تفكر الإنسان في ذلك ازداد بذلك يقينا ومعرفة.

(1) تقدم تخريجه.

(2) سورة آل عمران، الآية: 190.

(3) سورة الأعراف، الآية: 185.

(4) سورة الذاريات، الآية: 21.

ومن ذلك : تفكره في إنعام الله عليه قال الله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [1]. فإنه إذا تفكر في ذلك يزيد في المحبة والشكر .

قال الإمام أبو حامد الغزالي ـ رَحِمَهُ الله ـ : واعلم أنك إنما تعصي الله تعالى بجوارحك وهي نعمة أنعم الله بها عليك والاستعانة بنعمة الله على معصيته غاية الكفران .

ومنها أن يتفكر في زوال الدنيا وتقلبها بأهلها ولا ينظر إلى سعة عيش أهلها بل إلى سرعة ظعنهم وشر منقلبهم فإذا حقق العبد ما ذكرناه هانت عليه دنياه وجد في طاعة مولاه .

ومنها : أن يتفكر في الموت وسكراته وفي حال من مضى من إخوانه وأقاربه وأقرانه وكيف كانوا وإلى أين صاروا وأنه صائر إلى ما صاروا إليه وقادم على ما قدموا عليه فإن التفكر في ذلك يحمل على الخوف والخشية وقصر الآمال والمبادرة إلى التوبة وإلى صالح الأعمال .

ومنها : أن يتفكر في أهوال القيامة وكيف يحشر الناس حفاة عراة إلى أرض المحشر وفي ازدحام الناس وقرب الشمس من رءوسهم وشدة العرق مع ما في القلوب من القلق وفي الحديث «**إن العرق يأخذ الناس على قدر أعمالهم**».[2] وفي سؤال ربه عن أعماله بغير واسطة فإن التفكر في ذلك كله يدعو إلى أفعال الخيرات والتأهب للوقوف بين يدي عالم الخفيات .

ومنها : التفكر في نار جهنم أعاذنا الله منها وشدة حرها فإنها فضلت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءا وفيما فيها من الحيات والعقارب وغير ذلك من

(1) سورة إبراهيم ، الآية : 34.

(2) أخرجه مسلم (4/ 2196، رقم 2864) . وأخرجه أيضًا : الطبرانى (20/ 255، رقم 602) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (1/ 243، رقم 258) .

الأهوال الواردة في القرآن والأحاديث الصحيحة، ولو أن ملكا توعد إنسانا أن يحبسه في الحمام وأن يتركه في الصيف في الشمس لتنغص عليه عيشه وترك شهوته وإن التفكر في ذلك يزيد خوفا ويزجره عن معاصي الله عز وجل.

ومنها: أن يتفكر فيما أعد الله لعباده الصالحين في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فإن التفكر في ذلك يزيده رغبة فيها وقوة على طاعة الله عز وجل.

ومنها: أن يتفكر إذا حدثته نفسه بمعصية في نظر الله عز وجل إليه وأنه أقرب إليه من حبل الوريد ويستحضر قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1] فإن التفكر في ذلك يحمله على الحياء من الله تعالى والامتناع من المعاصي.

❊ ❊ ❊

(1) سورة الحديد، الآية: 4.

openkandl.com

الباب الثالث

في تفسير آيات الله من كتاب الله عز وجل

مشتملة على عجيب صنع الله وقدرته سبحانه وتعالى

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[1].

ذكر الله السماوات بلفظ الجمع والأرض بلفظ الواحد لأنها ليست من جنس واحد والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب، فالآية في السماوات سمكها وارتفاعها من غير عُمد، ولا علاقة، وما يرى فيها من الشمس والنجوم، قيل: إن الشمس مثل الأرض مائة ونيف وستين مرة وإن أصغر كوكب مثل الأرض ثمان مرات.

والآية في الأرض مدها وبسطها وسعتها وما يرى فيها من الأشجار والأنهار والجبال والبحار والجواهر والنبات قوله تعالى ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾. أي: تعاقبهما في الذهاب والمجيء يخلف أحدهما صاحبه إذا ذهب أحدهما جاء الآخر خلفه أي بعده نظيره قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾[2] قال عطاء أراد اختلافهما في النور والظلمة والزيادة والنقصان ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ الآية. تسخيرها وجريانها

(1) سورة البقرة، الآية: 164.

(2) سورة الفرقان، الآية: 62.

على وجه الماء وهي موقرة لا ترسب تحت الماء ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ يعني : ركوبها والحمل عليها في التجارات والمكاسب وأنواع المطالب ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ . قيل : أراد بالسماء السحاب فخلق الله ماء في السحاب ، ثم ينزل ، وقيل : أراد به السماء المعروفة يخلق الله الماء في السماء ، ثم ينزل منها إلى السحاب ثم من السحاب إلى الأرض ينزل ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ . أي : بعد يبسها وجدوبتها .

قال الشعبي : كل ما في الأرض فمن السماء أنزله الله قال الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [1]. قوله : ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ . أي : وفرق فيها ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ تصريفها أنها تنصرف إلى الشمال والجنوب والقبول والدبور والنكباء ، وقيل : تصريفها أنها تارة تكون لينة وتارة تكون عاصفا وتارة تكون باردة وتارة تكون حارة .

قال ابن عباس : أعظم جنود الله الريح والماء ، وسميت الريح ريحا ؛ لأنها تريح النفوس .

قال القاضي شريح : ما هبت ريح إلا لشفاء سقيم أو لسقم صحيح ، والبشارة في ثلاث من الرياح ؛ في الصبا والشمال والجنوب ، وأما الدبور فهو الريح العقيم لا بشارة فيها ، وقيل : الريح ثمانية أربعة للرحمة المبشرات والناشرات والذاريات والمرسلات وأربعة للعذاب العقيم والصرصر في البر والعاصف والقاصف في البحر .

وروى أبو داود والنسائي عن أبي هريرة ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ أن النبي ﷺ قال : «**الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها**

(1) سورة الزمر ، الآية : 21.

واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها» [1].

وروى مسلم عن عائشة ـ رَضِيَ الله عَنْها ـ أنها قالت كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال : «**اللهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**» [2].

قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ . أي : الغيم المذلل سمي سحابا لأنه ينسحب أي يسير في سرعة كأنه يسحب أي يجر بين السماء والأرض ﴿لَّأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يعلمون أن لهذه الأشياء خالقا وصانعا . قال وهب بن منبه ثلاثة لا يدرى من أين تجيء الرعد والبرق والسحاب .

قال علي ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ وابن عباس وأكثر المفسرين : الرعد اسم ملك يسوق السحاب والبرق لمعان صوت من نور يزجر به الملك السحاب .

ونقل الشافعي عن مجاهد أن الرعد ملك والبرق أجنحته يسوق بها السحاب ، ثم قال : وما أشبه ما قاله بظاهر القرآن .

قال الشيخ جمال الدين الأسنوي في **شرح المنهاج** : وحينئذ فيكون المسموع صوته على اختلاف فيه ، وأطلق الرعد عليه مجازا [3].

---

(1) أخرجه الشافعى (81/1) ، والبخارى فى الأدب المفرد (1/ 251، رقم 720) ، وأبو الشيخ فى العظمة (4/ 1313، رقم 81115) ، وابن حبان (3/ 287، رقم 1007) ، والحاكم (4/ 318، رقم 7769) وقال : صحيح الإسناد على شرط الشيخين . والبيهقى (3/ 361، رقم 6256) . وأخرجه أيضًا : أحمد (2/ 409، رقم 9288) ، والنسائى فى الكبرى (6/ 231، رقم 10767) ، وأبو يعلى (10/ 526، رقم 6142) . قال المناوى (60/4) قال الحاكم : صحيح وأقره الذهبى وقال النووى فى الأذكار والرياض : إسناده حسن .

(2) أخرجه عبد بن حميد (ص 86، رقم 167) .

(3) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج 7/ 490.

وقيل: الرعد ملك يزجر السحاب فإذا تبددت ضمها فإذا اشتد غضبه طار من فيه النار وهي الصواعق، وقيل: الرعد صوت انخفاق الريح بين السحاب.

قال ابن عباس ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ : من سمع صوت الرعد فقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير. فإن أصابته صاعقة فعلي ديته.

وروى الترمذي عن ابن عباس ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ أن النبي ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: «**اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك**».

وفي بعض الأخبار يقول الله تعالى: لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم أسمعهم صوت الرعد.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾. الفرث هو ماء في الكرش من الثفل فإذا خرج منه لا يسمى فرثا ﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾ من الدم والفرث ليس عليه لون دم ولا رائحة فرث ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[1] هنيئا يجري على السهولة في الحلق وقيل إنه لم يغص أحد باللبن قط.

قال ابن عباس ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ : إذا أكلت الدابة العلف واستقر في كرشها وطحنته فكان أسفله فرثا وأوسطه اللبن وأعلاه الدم والكبد مسلط عليها يقسمها بتقدير الله تعالى فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع ويبقى الفرث كما هو.

وقال الله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ

(1) سورة النحل، الآية: 66.

لِّلنَّاسِۚ﴾ [1]. وقيل: إن النحل تأكل الأزهار والأوراق العطرة، فيستحيل في باطنها عسلا، ثم تقيؤه ادخارا للشتاء، وقيل: إنها تلتقط بأفواهها أجزاء حلوة صغيرة طلية متفرقة على الأوراق والأزهار، وتضعها في بيوتها ادخارا للشتاء، فإذا اجتمع شيء كثير منها كان العسل، وعلى هذا القول يكون المراد بالبطون الأفواه، وقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾. لا يقتضي العموم كل علة، وفي كل إنسان لأنه ذكره في سياق الأسباب، بل هو خبر على أنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في حال دون حال.

وعن ابن عمر ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ أنه كان لا يشكو شيئا إلا تداوى بالعسل حتى كان يدهن به الدمل والقرحة ويقرأ الآية وهذا يقتضي أنه كان يحمله على العموم.

وروى ابن ماجه عن ابن مسعود ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ أن النبي ﷺ قال: «**العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور فعليكم بالشفاءين العسل والقرآن**».

وروي عن عوف بن مالك أنه مرض فقال ائتوني بماء فإن الله تعالى يقول ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا﴾ [2] ثم قال: ائتوني بعسل وقرأ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ [3]. ثم قال ائتوني بزيت فإنه من شجرة مباركة فخلط الجميع ثم شربه فشفي.

وقال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم﴾ يعني: أباكم آدم ﴿مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعني: ذريته ﴿ثُمَّ مِنْ

(1) سورة النحل، الآية: 69.

(2) سورة ق، الآية: 9.

(3) سورة النحل، الآية: 69.

عَلَقَةٍ﴾ وهي الدم العبيط المتجمد ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ وهي لحمة قليلة قدر ما يمضغ ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ .

قال ابن عباس ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ وقتادة : ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ . أي : تامة الخلق ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي : غير تامة ، أي ناقصة الخلق . وقال مجاهد : مصورة وغير مصورة يعني السقط .

روي عن ابن مسعود ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قال : إن النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك بكفه ، وقال : أي رب مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال غير مخلقة قذفها في الرحم دما فلم تكن نسمة وإن قال مخلقة قال الملك أي رب أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ ما الأجل؟ ما العمل؟ ما الرزق؟ وبأي أرض تموت؟ فيقال له : اذهب إلى أم الكتاب فإنك تجد فيها كل ذلك فيذهب فيجدها في أم الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفته ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي : بكمال قدرتنا وحكمتنا في تصريف أطوار خلقكم ليستدلوا بقدرته في ابتداء الخلق على قدرته على الإعادة ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ فلا تمجه ولا تسقطه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وقت خروجها من الرحم تام الخلق والمدة ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ أي من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ يعني الكمال والقوة ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ بلوغ الكبر ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي الهرم والخرف ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[1] أي يبلغ من السن بتغيير عقله فلا يعقل شيئا .

وقال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ولد آدم ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ أي : سل كل إنسان من ظهر أبيه ﴿مِّن طِينٍ﴾ آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي ابن آدم ﴿نُّطْفَةٍ﴾ ماء ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ مستقر حريز يعني الرحم ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ

(1) سورة الحج ، الآية : 5.

عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ .

قال الإمام فخر الدين الرازي: إنما لم يذكر الخلق كما ذكره في المراتب المتقدمة لأن العظام والأعصاب والعروق أعضاء أصلية متولدة من نطفة ولذلك إذا بطلت لا تعود بخلاف اللحم ولذلك إذا ذهب بالهزال عاد بالسمن وهو إنما يتولد من دم الطمث لا من المني فلذلك جعل كالكسوة للأعضاء الصلبة ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ .

قال ابن عباس وجماعة: هو نفخ الروح فيه وقال قتادة نبات الأسنان والشعر، وروى العوفي عن ابن عباس ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ أن ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستقلال إلى الارتضاع إلى القعود إلى القيام إلى المشي إلى الطعام إلى أن يأكل ويشرب إلى أن يبلغ الحلم وينقلب في البلاد إلى ما بعدها ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي استحق التعظيم والثناء عليه بأنه لم يزل ولا يزال ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1] المصورين المقدرين.

قيل: إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم من عجنة طين وخلق ذريته من ماء مهين وغمرهم من نعمته بماء معين؛ فدل بالأول على رجوع العبد إلى أصله، ودل بالثاني على إعلامهم بقدرته، ودل بالثالث على عظيم إحسانه وبره، وبذلك نطق الكتاب العزيز؛ فقال في النوع الأول: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾[2] الآية، وقال في النوع الثاني: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾[3] وقال في الثالث: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا

(1) سورة المؤمنون، الآيات: 12 ـ 14.

(2) سورة طه، الآية: 55.

(3) سورة يس، الآية: 77.

تُحۡصُوهَآۚ﴾ [1].

قال ابن عباس ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ في قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ [2]. أي : أتقنه وأحكمه وقيل خلق كل حيوان على صورته لم يخل البعض على صورة البعض وكل حيوان كامل في خلقته حسن وكل عضو من أعضائه مقدر لما يصلح به معاشه .

وقال الله تعالى : ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤﴾ [3]. أي : أعدل قامة وأحسن صورة وذلك أنه خلق كل حيوان منكبا على وجهه إلا الإنسان فإنه خلق مديد القامة يتناول مأكوله بيده مزينا بالعقل والتمييز .

وحكى صاحب **حياة الحيوان** عن سعيد بن جبير ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ أنه قال : لما أهبط الله آدم عليه السلام إلى الأرض لم يكن فيها غير النسر في البر والحوت في البحر وكان النسر يأوي إلى الحوت فيبيت عنده فلما رأى النسر آدم قال : يا حوت ، لقد أهبط اليوم إلى الأرض شيء يمشي على رجليه ويبطش بيديه ، فقال الحوت : لئن كنت صادقا ما لي منه منجى في البحر ولا لك منه مخلص في البر [4].

وقال الله تعالى : ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ . يعني : على آدم ﴿حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ أربعون سنة ملقى من طين بين مكة والطائف قبل أن ينفخ فيه الروح ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ لا يذكر ولا يعرف يريد كان شيئا ولم يكن مذكورا ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ يعني ولد آدم ﴿مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾ [5] أخلاط واحدها مشج .

(1) سورة إبراهيم ، الآية : 34.

(2) سورة السجدة ، الآية : 7.

(3) سورة التين ، الآية : 4.

(4) حياة الحيوان الكبرى 1/ 254،

(5) سورة الإنسان ، الآيتان : 1، 2.

قال ابن عباس ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ : يعني ماء الرجل وماء المرأة يختلطان في الرحم فيكون منهما الولد فماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا صاحبه كان الشبه له فما كان من عصب وعظم فمن نطفة الرجل وما كان من لحم ودم فمن ماء المرأة وقال الحسن النطفة مشجت بدم وهو دم الحيض إذا حبلت ارتفع الحيض .

ونقل الإمام فخر الدين الرازي في كتاب **أسرار التنزيل ولطائف التأويل** عن أبي جعفر الباقر[1] ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ أنه قال : كل ما خلق الله في العالم الأكبر فانظر في العالم الأصغر تجده وذلك لأنه خلق في العالم الأكبر شمسا وقمرا ونجوما وخلق في العالم الأصغر الروح ؛ لأن الروح تضيء الجسد كما أن الشمس إذا غربت صار العالم مظلما والعقل كالقمر فكما أن القمر يستمد النور من الشمس فكذلك العقل يستمد النور من الروح وكما أن القمر يزيد ضوءه تارة وينقص تارة فكذلك العقل ، وأما النجوم الخمسة السيارة فنظيرها في البدن الحواس ونظير الجبال عظامك ونظير البحار العروق الكبار ، وكما أنه يحصل من البحر حيتان مضطربة ، فكذلك ترى في بحر فمك لسانك مضطربا يذكر الحكمة وفي بحر مقلتك ترى حدقتك مضطربة بمطالعة العبر ، وكما أنك ترى في بعض أجزاء الأرض نباتا وفي بعضها ليس كذلك فكذلك ترى في بعض أجزائك شعرا وفي بعضها ليس كذلك .

قال علي ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ : سبحان من بصر بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم .

(1) هو السيد الإمام أبو جعفر محمد بن على بن الحسين الباقر ، وَلَدُ زين العابدين ، كان مولده سنة ست وخمسين من الهجرة ، واشتهر بالباقر من بَقَر العلم : أى شقَّه فعرف أصله وخفيه ، مات سنة أربع عشرة ومائة بالمدينة ، وقيل : سنة سبع عشرة ومائة ، وقيل غير ذلك . ترجمته عند ابن سعد فى الطبقات الكبرى 5/ 320، والشيرازى : طبقات الفقهاء ص 64، والذهبى : سير أعلام النبلاء 4/ 401.

قال الإمام فخر الدين ـ رَحِمَهُ الله ـ : جعل سبحانه وتعالى العينين مقدمتين والأذنين مؤخرتين فالعينان يدركان الأجسام والأعراض، وهي أول دليل على وجود الصانع والأذنان يسمعان الكلام والدلائل العقلية مقدمة على الدلائل السمعية وخلق الله العين بغطاء والأذنين بلا غطاء لأن متعلق العين أجسام وأعراض باقية فلولا الغطاء فيهما لكانا على خطر ومتعلق الأذنين الصوت فلو كان لهما غطاء لزال الصوت قبل ارتفاع الغطاء فلا يحصل الانتفاع بالسمع وخلق الأذن بلا حجاب ولا باب وخلق وراء اللسان بابين أحدهما الأسنان والثاني الشفتان، وفيه تنبيه على أنه يجب أن يكون استماع الكلام أكثر من الاشتغال بالكلام.

وقال ابن عباس رضي ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ في قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾[1] أول ما خلق الله ـ عز وجل ـ القلم فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم خلق النون فبسط الأرض على ظهره فتحرك النون فمادت الأرض، فأثبتت بالجبال لتفتخر على الأرض، ثم قرأ ابن عباس ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾.

وقال الرواة: لما خلق الله تعالى الأرض وفتقها بعث من تحت العرش ملكا يهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب باسطتين قابضتين على الأرضين السبع حتى ضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار فأهبط الله عز وجل من الفردوس ثورا له أربعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة، وجعل قرار قدمي الملك عليه، أي: على سنامه فلم تستقر قدماه، فأحضر ياقوتة خضراء من أعلى درجة في الفردوس غلظها مسيرة خمسمائة عام، فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض ومنخراه في البحر، فهو يتنفس كل يوم نفسا

(1) سورة القلم، الآية: 1.

فإذا تنفس مد البحر وإذا مد نفسه جزر فلم يكن لقوائم الثور موضع قرار، فخلق الله تعالى صخرة كغلظ سبع سماوات وسبع أرضين فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه عليهما السلام ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾[1] ولم يكن للصخرة مستقر فخلق الله تعالى نونا وهو الحوت العظيم فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال والحوت على بحر والبحر على متن الريح والريح على القدرة ثقل الدنيا بما عليها حرفان قال لها الجبار كوني فكانت.

قال كعب الأحبار: إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض ووسوس إليه فقال: أتدري ما على ظهرك يا لوثيا، وهو اسمه، من الأمم والدواب والشجر والجبال؟ فلو نفضتهم وألقيتهم عن ظهرك فهم لوثيا أن يفعل ذلك فبعث الله عز وجل ذبابة فدخلت في منخره فوصلت إلى دماغه فعج الحوت إلى الله عز وجل منها فأذن الله لها فخرجت كما كانت قال كعب الأحبار والذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت كما كانت.

وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ إذا ساروا فيها من الجبال والبحار والثمار والأشجار وأنواع النبات ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ آيات إذ كانت نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما إلى أن نفخ فيها الروح.

وقال ابن عباس ـ رَضِيَ الله عَنْهُما ـ: يريد اختلاف الألسن والصور والألوان والطبائع. قال ابن الزبير يريد سبيل الغائط والبول يأكل ويشرب من مدخل واحد ويخرج من سبيلين ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. قال مقاتل: أفلا تبصرون كيف خلقكم فتعرفوا كيف قدرته على البعث ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ قال ابن عباس ومقاتل يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال عطاء: من الثواب

(1) سورة لقمان، الآية: 16.

والعقاب ، وقال مجاهد : من الخير والشر . وقال الضحاك : وما توعدون من الجنة والنار .

ثم أقسم بنفسه فقال تعالى : ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ . أي : ما ذكرت من أمر الرزق لحق ﴿مِثْلَ﴾ أي : كمثل ﴿مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1] فتقولون : لا إله إلا الله وقيل شبه تحقق ما أخبر عنه بتحقق نطق الآدمي ، كما يقول إنه لحق كما ههنا وإنه لحق كما أنك تتكلم والمعنى أنه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة . وقال بعض الحكماء يعني كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه الذي قسم له ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره كذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه ولا يقدر أن يأكل رزق غيره ، وقال الله تعالى : ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ أي : العذب والملح ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾[2] لا يختلطان ولا يتغيران ولا يبغي أحدهما على صاحبه .

وقال قتادة : لا يبغيان على الناس لا يطغيان على الناس بالغرق وقال مجاهد والضحاك بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان كل عام ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾[3] وإنما يخرجان من المالح دون العذب وهذا جائز في كلام العرب أن يذكر شيئان ثم يخص أحدهما بفعل كما قال الله تعالى ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[4] وكان الرسل عليهم السلام من الإنس . وقال : بعضهم يخرجان من العذب والمالح جميعا لأن الصدف لا يسكن إلا عند ملتقى الماءين ، وقيل : إن أحدهما كاللقاح للآخر وقيل يخرجان من ماء السماء وماء البحر .

(1) سورة الذاريات ، الآيات : 20 ـ 23.

(2) سورة الرحمن ، الآيتان : 19، 20.

(3) سورة الرحمن ، الآية : 22.

(4) سورة الأنعام ، الآية : 130.

قال ابن جريج : إذا مطرت السماء فتحت الأصداف أفواهها فحيث وقعت قطرة كانت لؤلؤة واللؤلؤ عظم من الدر والمرجان صغارها . وقال مقاتل ومجاهد : على الضد من هذا . وقيل : المرجان الخرز الأحمر ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ أي نعم ﴿رَبُّكُمَا﴾ يا معشر الجن والإنس ﴿تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ السفن الكبار ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ أي المرفوعات ﴿فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾[1] كالجبال ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي على ظهر الأرض من حيوان ﴿فان﴾ هالك ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[2] العظمة والسلطان والإكرام التجاوز والإحسان ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس فأهل السماوات يسألونه المغفرة وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[3]. قال المفسرون : من شأنه أنه يحيي ويميت ويرزق ويعز قوما ويذل قوما ويشفي مريضا ويفك عانيا ، ويفرج مكروبا ويجيب داعيا ويعطي سائلا ، ويغفر ذنبا إلى ما لا يحصى من أفعاله وأحداثه في خلقه ما يشاء .

قال ابن عباس ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ : إن مما خلق الله ـ عز وجل ـ لوحا من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور ينظر الله تعالى فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء ، وذلك قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ .

وقال سفيان بن عيينة : الدهر كله عند الله تعالى يومان أحدهما مدة أيام الدنيا والآخرة يوم القيامة ، فالشأن الذي هو في اليوم الذي هو مدة الدنيا الاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإعطاء والمنع وشأن يوم القيامة الجزاء والحساب والثواب

(1) سورة الرحمن ، الآيتان ، 21، 22.

(2) سورة الرحمن ، الآيتان : 26، 27.

(3) سورة الرحمن ، الآية : 29.

والعقاب. وقيل: شأنه أنه يخرج في كل يوم وليلة ثلاثة عساكر عسكرا من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات وعسكرا من الأرحام إلى الدنيا وعسكرا من الدنيا إلى القبور ثم يرتحلون جميعا إلى الله تعالى.

وعن أبي هريرة ـ رَضِيَ الله عَنْهُ ـ قال أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «**خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل**». رواه مسلم [1].

وقال الحسن بن الفضيل: هو سوق المقادير إلى المواقيت.

وقال أبو سليمان الداراني: كل يوم له إلى خلقه بر جديد. قال سعيد بن المسيب لله ألف عالم ستمائة في البحر وأربعمائة في البر.

وقال مقاتل: ثمانون ألف عالم أربعون ألفا في البحر وأربعون ألفا في البر.

قال وهب: ثمانية عشر ألف عالم الدنيا عالم منها وما العمران في الخراب إلا كفسطاط في الصحراء.

قال كعب الأحبار لا يحصي عدد العالمين أحد إلا الله تعالى قال الله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [2].

(1) مسلم (4/ 2149، رقم 2789)، وأخرجه أحمد (2/ 327، رقم 6323) والبخارى فى التاريخ (413/1) وقال قال بعضهم: عن أبى هريرة عن كعب وهو أصح. والنسائى فى الكبرى (6/ 293، رقم 11010). وأخرجه أيضًا: ابن خزيمة (3/ 117، رقم 1731)، وأبو يعلى (10/ 513، رقم 6132) والديلمى (2/ 184، رقم 2927).

(2) سورة المدثر، الآية: 31.

الباب الرابع

في فوائد عجيبة ولطائف غريبة

شرح عجائب حكمة الله تعالى في خلقه البعوض ملخص من كلام فخر الدين الرازي ـ رَحِمَهُ الله ـ وبيان ذلك من وجوه :

الأول : أن الناس يتعجبون في عظم خلقة الفيل وهو مع عظم جثته ليس له إلا أربعة أرجل وخرطوم وذنب والبعوضة لها زيادة على ذلك يدان وأربعة أجنحة .

الثاني : أنه مع غاية صغره سلط على الفيل والأسد بالإيذاء ولا قدرة لهما على البعوض وهذا يدل على أن الاستيلاء ليس بالقوة والشدة .

والثالث : أن الصانع من البشر يقدر أن يصور فيلا من الخشب والحديد ولا يقدر أن يصور بعوضة .

الرابع : إذا جلس البعوض على عضو إنسان فإنه لا يزال يدير خرطومه من جانب إلى جانب حتى يجد الموضع المثقب من جلد الإنسان فيغوص خرطومه فيه فمن الذي هداه إلى مقصوده .

الخامس : تأمل في صغر جثة البعوض ولا شك أن خرطومه أصغر من خرطوم الفيل بكثير ثم ذلك الخرطوم مع غاية صغره مجوف ولولا التجويف لما قدر على امتصاص الدم ، وانظر مع كونه مجوفا كيف تكون غاية دقته ثم تأمل أنه مع غاية الدقة كيف قوته وشدته فإنه يغوص الخرطوم في جلد الفيل والجاموس ويستخرج الدم منه كما يضرب الرجل أصبعه في الخبيص .

السادس : تأمل في حال البعوض كيف أودع الله تعالى في رأس خرطومه سما وفيه فائدتان :

الأولى : أنه إذا انصب على موضع من جلد أفسد مزاجه فتحدث بسببه رخاوة ولين فيسهل عليه تغويص خرطومه فيه

الثانية : أن الحرارة السمية تعينه على هضم ذلك الدم المصوص قيل الحكمة في خلق السم بين فكي الحية أنه ليس لها أضراس تقوى بها على مضغ الأغذية فإذا قبضت على جثة الحيوانات أقبل ذلك السم عليه فيتهرى من ساعته فتبلعه .

السابع : تأمل في حالها إذا وقعت على عضو اعتمد على ما لها من الأيدي والأرجل وغوصت خرطومها في الجلد ، فإذا أحست بمجيء اليد أخرجته في الحال ، وطارت قبل الوصول إليها ، ولو أن إنسانا جعل مسلة في جرم غليظ فإنه لا يمكنه إخراجها إلا بتعب .

الثامن : تأمل في رأس البعوضة ووجهها فإنه مع غاية صغرها قد جعل الله في رأسها أعينا وأودعها قوة أكمل مما للإنسان ويدل عليها أنها تبصر في الظلمة الشديدة الموضع الذي يمكنها مص الدم منه وخلق فيه أذنين وأودع فيهما قوة سامعة أقوى مما للإنسان ولذلك تسمع خفيق اليد مع أن الإنسان لا يسمعها وخلق فيه قوة الشم ولذلك تحس بوقوع الجيفة في المكان البعيد وخلق فيه الفم وأودع فيه القوة الذائفة ولذلك ترغب في بعض الطعوم وخلق فيه قوة الحفظ ولولاه لما عرفت الفرار عند مجيء اليد وقوة الذكر ولولاها لما ميزت المعاني النافعة والضارة ولا شك أنه تعالى خلق لها منفذا للغذاء يخرج الفضلة ومتى كان كذلك فقد خلق الله تعالى له جوفا وعروقا وأمعاء وعظاما فسبحان من لا يعزب عن علمه وحكمته وقدرته ذرة في الأرض ولا في السماء : [من الكامل]

يا من يرى مد البعوض جناحه ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطه في نحره ... والمخ في تلك العظام النحل
اغفر لعبد تاب من فرطاته ... ما كان منه في الزمان الأول

فصل في أحاديث وآثار ومستظرفات
من كتاب حياة الحيوان تصنيف الشيخ الإمام
كمال الدين الدميري ـ رَحِمَهُ الله ـ

في مناقب الشافعي ـ رَحِمَهُ الله تعالى ـ أن المأمون سأله : لأي علة خلق الله الذباب؟ فقال : مذلة للملوك . فضحك المأمون[1] وقال : رأيتَه قد سقط على جسدي؟ قال : نعم . قال : ولقد سألتني عنه يوما وما عندي جواب ، فلما رأيته قد سقط منك بموضع لا يناله أحد فتح لي فيه جواب فقال : لله درك[2].

وروى الطبراني والبيهقي عن شعبة عن أبي زهيرة النمري قال : قال رسول الله ﷺ : «**لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم**»[3]. قال : وهذا إن صح أراد به إذا لم يتعرض لإفساد الزرع فإن تعرض له جاز دفعه بالقتل وغيره[4].

ثم أسند عن ابن عمر أن جرادة وقعت بين يدي رسول الله ﷺ ، فإذا مكتوب على جناحها بالعبرانية : نحن جند الله الأعظم ، ولنا تسعة وتسعون

(1) عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، أبو العباس ، أو أبو جعفر ، كان على مذهب الاعتزال ، وفى عهده كانت مشكلة خلق القرآن ، توفى سنة 218هـ . ترجمته فى تاريخ بغداد 10/ 283، والإنباء فى تاريخ الخلفاء صـ96. وسير أعلام النبلاء 10/ 72.

(2) حياة الحيوان الكبرى 1/ 358.

(3) أخرجه الطبرانى (297/22 رقم 757) ، وأبو الشيخ (5/ 1788، رقم 12939) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (7/ 232، رقم 10127) . وأخرجه أيضًا : ابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى (3/ 118، رقم 1440) ، والطبرانى فى الأوسط (9/ 111، رقم 9277) ، والطبرانى فى الشاميين (2/ 438، رقم 1656) ، وابن قانع (3/ 239، رقم 1224) ، والديلمى (5/ 45، رقم 7411) . قال الهيثمى (39/4) : رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف .

(4) حياة الحيوان الكبرى 1/ 181.

بيضة ، ولو تمت المائة لأكلنا الدنيا بما فيها ، فقال النبي ﷺ : «**اللهم أهلك الجراد واقتل كبارها وأمت صغارها وأفسد بيضها وسد أفواهها عن مزارع المسلمين وعن معايشهم إنك سميع الدعاء**» . فجاء جبرائيل فقال : إنه قد استجيب لك بعضه [1].

ثم أسند عن الحسن بن علي قال : كنا على مائدة نأكل أنا وأخي محمد ابن الحنفية[2] وبنو عمي عبد الله وقثم والفضل أبناء العباس ، فوقعت جرادة على المائدة ، فأخذها عبد الله وقال لي : ما مكتوب على جسدها؟ فقلت : سألت أبي أمير المؤمنين عن ذلك فقال : سألت عنه رسول الله ﷺ فقال : «**مكتوب عليها أنا الله لا إله إلا أنا خالق الجراد ورازقها إذا شئت بعثتها رزقا لقوم وإذا شئت بعثتها بلاء على قوم**» . قال عبد الله : هذا من العلم المكنون [3].

وقال عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن الله خلق ألف أمة ؛ ستمائة منها في البحر ، وأربعمائة في البر ، وإن أول هلاك هذه الأمم الجراد ، فإذا هلك**

(1) حياة الحيوان الكبرى 1/ 181.

(2) ابن الحنفية (21 ـ 81هـ/642 ـ 700م) هو : محمد بن علي بن أبي طالب ، الهاشمي القرشي ، أبو القاسم المعروف بابن الحنفية : أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام . وهو أخو الحسن والحسين ، غير أن أمهما فاطمة الزهراء ، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية ، ينسب إليها تمييزا له عنهما . وكان يقول : الحسن والحسين أفضل مني ، وأنا أعلم منهما . كان واسع العلم ، ورعا ، أسود اللون . وأخبار قوته وشجاعته كثيرة . وكان المختار الثقفي يدعو الناس إلى إمامته ، ويزعم أنه المهدي . وكانت الكيسانية (من فرق الإسلام) تزعم أنه لم يمت وأنه مقيم برضوى . مولده ووفاته في المدينة . وقيل : خرج إلى الطائف هاربا من ابن الزبير ، فمات هناك . ترجمته في : طبقات ابن سعد 5/ 91، نسب قريش ص 41، طبقات خليفة (1971) ، تاريخ البخاري 1/ 182، المعارف 210 و 216، المعرفة والتاريخ 1/ 544، الجرح والتعديل القسم الاول من المجلد الرابع 26، البدء والتاريخ 5/ 75، الحلية 3/ 174، طبقات الشيرازي 62، وفيات الأعيان 4/ 169.

(3) حياة الحيوان الكبرى 1/ 182.

الجراد تتابعت الأمم كنظام السلك» [1].

وفي الجراد خلقة عشرة من جبابرة الحيوان: وجه فرس، وعين فيل، وعنق ثور، وقرنا إبل، وصدر أسد، وبطن عقرب، وجناحا نسر، وفخذ جمل، ورجلا نعامة، وذنب حية.

وحكى القزويني أن رجلا رأى خنفساء فقال: ماذا يريد الله من خلق هذه، ألحسن شكلها أو لطيب رائحتها؟! فابتلاه الله بقرحة عجز عنها الأطباء، حتى ترك علاجها، فسمع يوما صوت طبيب من الطرقيين ينادي في الدرب فقال: اطلبوه حتى ينظر في أمري، فقالوا له: ما نصنع به وقد عجز عنك حذاق الأطباء؟ فقال: لا بد لي منه فأحضروه إليه، فرآه ثم استدعى بخنفساء، فضحك الحاضرون، فذكر العليل القول الذي سبق منه فقال: أحضروا ما طلب فإن الرجل على بصيرة. قال: فأحرقها وذر رمادها على قرحته فبرئت بإذن الله فقال للحاضرين: أراد الله أن يعرفني أن أخس المخلوقات أعز الأدوية [2].

ويقال: إنه إذا اكتحل بما في جوف الخنفسة من الرطوبة يحد البصر ويجلو غشاوة العين ويزيل البياض.

❊ ❊ ❊

(1) حياة الحيوان الكبرى 1/ 182.

(2) حياة الحيوان الكبرى 1/ 309.